المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

ابن خلدون

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وهو نص محاضرتين ألقيتا بدار مكتب التبادل الثقافى للمغرب بمصر
الأولى فى ٢٧ يناير ، والثانية فى ٣ فبراير سنة ١٩٣٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

ابن خلدون

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وهو نص محاضرتين ألقيتا بدار مكتب التبادل الثقافي للمغرب بمصر
الأولى في ٢٧ يناير ، والثانية في ٣ فبراير سنة ١٩٣٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٩

ابن خلدون

١ — حياته

كان ظهور ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى (القرن الرابع عشر الميلادى) حادثا فكريا عظيما فى العالم الإسلامى . فقد كان الإسلام يجوز يومئذ مرحلة انحلال فكرى واجتماعى . وكانت دولة التفكير والأدب التى بلغت ذروتها فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة قد وهنت وتضاءلت فى القرنين الخامس والسادس ، وقلّ ظهور العبقريات القوية الشاملة سواء فى الشرق أو الغرب ، فكان ظهور ابن خلدون فى القرن الثامن حادثاً فذا فى تاريخ التفكير الإسلامى .

وكان مولد هذا المفكر العظيم بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ ﻫ (الموافق ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) من أسرة أندلسية مغربية ، نزحت من الأندلس إلى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى . ويُرجع ابن خلدون أصله إلى العرب اليمانية فى حضرموت ، ونسبه إلى وائل بن حجر ، معتمداً فى ذلك على رواية للنسابة الأندلسى ابن حزم . ويحدثنا ابن خلدون نفسه عن تاريخ أسرته مذ كانت بالأندلس ، وكيف ساهمت بقسط بارز فى ثورات إشبيلية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وكيف سطع نجمها فى عهد الطوائف فى ظل بنى عباد ، ورقت إلى مراتب الرياسة والوزارة . وكيف شهد زعماؤها موقعة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩ ﻫ ، وكيف نزحت أخيراً إلى تونس حينما اضطربت أمور الأندلس فى القرن السادس لتستظل هناك بلواء بنى حفص ؛ وفى تونس ظهر بنو خلدون بالرياسة والعلم ، وتولوا مناصب الثقة والنفوذ .

وهكذا نشأ ابن خلدون فى بيت علم ورياسة . ويحدثنا ابن خلدون فى ترجمته عن تربيته ودروسه الأولى بإفاضة ، وهى لا تخرج فى جوهرها عما كان يتلقاه طلبة العلم فى هـذا العصر من علوم القرآن والحديث واللغة . بيد أنه يحدثنا أنه درس المنطق والفلسفة أيضاً ، وهذه نقطة هامة فى تكوين ابن خلدون ظهر أثرها فى تفكيره فيما بعد . واستمر فى دراسته حتى الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت العالم الإسلامى كله من سمرقند إلى المغرب ، ونعنى الفناء الكبير أو الطاعون الجارف ، وفيها هلك والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس ، والتى يصفها المؤرخ فى لهجة مؤثرة بقوله : « إنها طوت البساط بما فيه ، وفيها ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة ... »

ولم يمض القليل على ذلك حتى أتيحت لابن خلدون فرصة للنزول إلى ميدان الحيـاة العامة ، إذ استدعاه ابن « تافراكين » المتغلب يومئذ على تونس لكتابة العَلاَمة ، أو بعبارة أخرى التوقيع باسم الأمير وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية .

وكان هذا بدء التوجيه فى حياة ابن خلدون العامة . وسنرى أنه من ذلك الحين يتقلب بين قصور المغرب بلا انقطاع .

ونقول قصور المغرب ، لأن إفريقية الشمالية كانت تنقسم عندئذ إلى ممالك عدة هى التى قامت على أنقاض دولة الموحدين الكبرى .

ففى تونس كانت دولة بنى حفص ، وفى تلمسان والمغرب الأوسط كانت دولة بنى عبد الواد ، وفى فاس والمغرب الأقصى كانت دولة بنى مَرِين ، أقوى الدول الجديدة وأعظمها . هذه إلى عدة إمارات أخرى فى بعض المدن الهامة ، مثل بجاية وقسنطينة وغيرها . وكانت هـذه الدول والإمارات فى تنافس مستمر وحروب لا تنقطع .

وكان ابن خلدون على حداثة سنه يجيش بأطماع كبيرة ، فانتهز فرصة نشوب الحرب بين ابن تافراكين وخصومه ، وغادر تونس إلى المغرب الأوسط حيث كان السلطان أبو عنان المرينى فى بعض غزواته . فاتصل به وقرّبه السلطان إليه ، وعينه عضواً فى مجلسه العلمى ثم عينه بعد ذلك ضمن كتابه وموقعيه .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة فى تاريخ الدول المغربية يأخذ بقسط وافر فى تطوراتها وتقلباتها ، ويشترك أحياناً فى تدبير عوامل نهضتها أو سقوطها . وكانت صلته بالسلطان أبى عنان أعظم سلاطين المغرب يومئذ فاتحة ذلك النشاط السياسى الزاهر ، الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين دولة ودولة ، و بين قصر وقصر ، و يرفعه أحياناً إلى ذروة السلطان والنفوذ ، و يخفضه أحياناً إلى معترك المحنة والسقوط .

و يطول بنا المقام إذا حاولنا أن نتتبع ابن خلدون فى جميع أطوار حياته السياسية وجميع تقلباته بين قصور المغرب ، و يكفى أن نقول إنه عرف محنته الأولى فى عهد سيده السلطان أبى عنان ، حيث اتهم بالتآمر عليه وزج حيناً فى السجن ، ثم عاد نجمه فتألق مرة أخرى فى عهد خلفه السلطان أبى سالم ، حيث تولى فى ظله كتابة السير والإنشاء . وظهر عندئذ ببراعته فى النثر والنظم . وابن خلدون شاعر رقيق تغلب على شعره نزعة صوفية ساحرة ، ومن نظمه فى تلك الفترة قصيدة رقيقة رفعها إلى السلطان ليلة المولد النبوى الكريم ، يعدد فيها مناقب الرسول ومعجزاته و يمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى   وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة   لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا   قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح   فشرقت بعدهم بماء غروبى

ورفع إلى السلطان — يوم وفدت عليه هدية ملك السودان — قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره ، ويصف الزرافة بما يأتى :

ورقيمة الأعطاف حالية   موشية بوشائج البرد
وحشية الأنساب ما أنست   فى موحش البيداء بالفرد
تسمو بجيد بالغ صعداً   شرف الصروح بغير ما جهد

ثم تولى خطة المظالم والقضاء ، فأبدى فيها كفاية و براعة ، وتقلب بعد ذلك وقتاً آخر فى خدمة المتغلبين على فاس . ولما ضاق ذرعا بحياة الدسائس والمغامرات التى خاضها طيلة هذه الأعوام ، والتى كانت من خواص القصور المغربية فى هذا العصر ، رأى أن يجوز البحر إلى الأندلس ليستظل برعاية ملكها السلطان محمد ابن يوسف بن الأحمر ، وكان قد تعرف به و بوزيره الكاتب والشاعر الكبير ابن الخطيب وقت مقامهما منفيين بالمغرب ، وتوثقت صلاته بهما . فجاز البحر سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) إلى الأندلس ، واستقبله السلطان بالترحاب وقربه إليه . و بعث به سفيراً إلى ملك قشتالة ليعقد الصلح بينهما . وأدى ابن خلدون مهمته بنجاح ، وعاش حيناً مع أسرته فى ضواحى غرناطة فى هدوء ورغد ؛ ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن استرعت اهتمامه مرة أخرى فعاد إليه ؛ و بعد تقلبات أخرى فى قصور المغرب نراه أخيراً يعاف أحداث السياسة ويلجأ إلى أصدقائه بنى عريف ، وينزل عليهم ضيفاً فى قلعة سلامة من أعمال توجين ، وهناك فى هذا المقر الهادئ المنعزل يعنى لأول مرة بكتابة مؤلفه التاريخى .

وفى هذا المقام الهادئ كتب ابن خلدون مقدمته الشهيرة ، أو بعبارة أخرى مقدمة مؤلفه التاريخى ، وألهم تلك النظريات الفلسفية والاجتماعية الخالدة ، التى رفعته إلى مصاف الفلاسفة والمفكرين العالميين ، ولم يستغرق فى كتابتها — حسبما يحدثنا — سوى خمسة أشهر . ثم بدأ بعد المقدمة بكتابة تاريخه ؛ فكتب منه

تاريخ العرب وتاريخ البربر ، أو بعبارة أخرى كتب أقسامه الأولى والأخيرة . وهنا شعر بحاجة إلى التحقيق والمراجعة ؛ فاعتزم أن يعود إلى تونس وطنه ومسقط رأسه ، وكانت يومئذ حافلة بالمكاتب الثمينة الزاخرة . فعاد إليها فى سنة ٧٨٠ لأول مرة بعد مفارقته إياها فى سنة ثلاث وخمسين ، ورحب به سلطانها وعكف على إتمام مؤلفه بمؤازرة السلطان ورعايته ، وفى أوائل سنة ٧٨٤ استطاع أن يتم مؤلفه التاريخى العظيم ، وأن يرفع نسخته الأولى إلى السلطان ، مشفوعة بقصيدة طويلة من روائع نظمه . يقول فيها فى وصف مؤلفه :

إليك من سير الزمان وأهله ... عبراً يدين بفضلها من يعدل
صحفاً تترجم عن أحاديث الأولى ... درجوا فتجمل عنهمو وتفصل
لخصت كتب الأولين بجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حُوشِىّ الكلام كأنما ... سرد اللغات بها لنطقى ذللوا
وجعلته لسوار ملكك مفخراً ... يبهى الندىّ به ويزهو المحفل
لله ما أسرفت فيما قلته ... شيئاً ولا الإسراف منى يجمل

والظاهر أن ابن خلدون كان يرى عندئذ أن يختتم حياة التجوال والمغامرة ، وأن ينقطع إلى التفكير والكتابة ؛ ولكن الدسائس القديمة عادت فعكرت صفوه وإن لم تحرمه من عطف مليكه . فاعتزم أن يطوى صفحة هذه الحياة نهائيا ، وأن يغادر المغرب إلى حيث يرجو الاستقرار والسكينة ؛ فانتحل الحج لدى السلطان عذراً ، وغادر وطنه ومسقط رأسه فى حفل مؤثر من التلاميذ والأصدقاء ، وركب البحر إلى المشرق فى شعبان سنة ٧٨٤ هـ (اكتوبر سنة ١٣٨٣ م) .

وصل ابن خلدون إلى القاهرة فى أواخر سنة ٧٨٤ هـ فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة العظيم ابن بطوطة . وليس أدل على عميق تأثره لرؤية المدينة العظيمة من قوله فى وصفها :

« فرأيت حاضرة الدنيا ، و بستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، و إيوان الإسلام ، وكرسى الملك ؛ تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ... » .

ولم يكن اسم المفكر العظيم مجهولا فى مصر ؛ فقد سبقه صيته إليها ، بل سبقته نسخ مؤلفه الأولى ، وقرئت مقدمته فيها . ولذا ما كاد يحل بالجامع الأزهر جريا على سنة جميع علماء المشرق والمغرب الوافدين على مصر حتى أقبل عليه الطلاب من كل صوب ، أو كما يقول لنا ابن خلدون فى تواضع وكبرياء معاً : « وانثال علىّ طلبة العلم يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ولم يوسعونى عذراً » .

وسحر ابن خلدون المجتمع القاهرى بغزارة علمه وحسن محاضرته ، واتصل بسلطان مصر الظاهر برقوق ؛ فأغدق عليه عطفه ورعايته ، وعينه أستاذاً بالمدرسة القمحية ، ثم أستاذاً بالمدرسة الظاهرية ، ثم شيخاً لخانقاه بيبرس الصوفية ؛ وفى خلال ذلك عين قاضياً للقضاة المالكية . و يصف لنا ابن خلدون حالة القضاء المصرى يومئذ فى نبذ طويلة قوية ؛ بيد أنها لا تشف عن حسن ظنه . ولم يمض قليل على ذلك حتى عزل عن منصب القضاء وانقطع إلى التدريس . وحقق يومئذ أمنيته القديمة فى أداء فريضة الحج ، ثم عاد إلى القاهرة سنة ٧٩٠ هـ .

وقد كانت ولاية ابن خلدون للقضاء مثار عاصفة قوية فى المجتمع القاهرى ، فالقضاء من أهم مناصب الدولة ، والمفروض أن يتولى مناصبه العلماء المصريون وهم يومئذ جمهرة كبيرة . ومن ثم فقد كانت ولاية ابن خلدون — وهو غير مصرى — لمنصب القضاء العالى مثار سخط فريق كبير من العلماء المصريين ، وفى مقدمتهم عميد علماء العصر ابن حجر العسقلانى . على أنه كانت هنالك أسباب كثيرة أخرى لإثارة هذه الخصومة بين ابن خلدون والعلماء المصريين ، منها كبرياؤه

وصرامة أخلاقه واعتداده بنفسه ، ومنها ما يرجع إلى حملتــه على المصريين فى مقدمته ووصفه إياهم بأنهم : « قوم يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب » . وقد اضطرمت هذه الخصومة بين ابن خلدون و بين العلماء المصريين طول إقامته بمصر ولم تنته إلا بموته .

واستطالت إقامة ابن خلدون بالقاهرة ، وعول على أن يقضى بها بقية حياته خصوصاً بعد أن غرقت أسرته التى كانت قادمة للحاق به . وفى ســنة إحدى وثمانمائة أعيد إلى منصب القضاء بعد أن تركه نحو أربعة عشر عاماً ، ثم عزل منه بعد عامين . ولم يمض إلا قليل حتى زحف التتار على الشأم بقيادة تيمور لنك وهرع سلطان مصر الناصر فرج للقائهم ، واصطحب ابن خلدون مع جماعة من العلماء فى المدرسة العادلية . وطوق التتار دمشق وهددوها بالويل . وهنا نشهد منظراً غريباً ؛ نرى ابن خلدون وهو يومئذ قد جاوز السبعين من عمره ، يضطرم بنزعة مدهشة من الجرأة والمخاطرة . فقد طلب إلى القضاة أن يتدلى من السور ليفاوض بنفسه تيمور لنك فى عقــد الصلح ، فأدلوه كما طلب ، وهرع إلى مقابلة الفاتح فى خيمته . وهو يصف لنا ذلك اللقاء الشهير فى ترجمته فيقول لنا : « ودخلت عليه (أى على تيمور) بخيمة جلوسه متكئاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشربها إلى عصب المغل — جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً — فلما دخلت عليه انحنيت بالسلام ، وأوميت إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ومد إلىّ يده فقبلتها ، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار ابن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا » .

و يقص علينا ابن خلدون ما دار بينــه و بين تيمور لنك ، وكيف سأله عن المغرب وسلاطينه ، وطلب أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب ، وكيف ذكر له ابن خلدون أنه كان يتوق إلى لقائه منذ أربعين عاماً ، وكيف شرح له طرفاً

من آرائه فى العصبية والملك ، وكيف قدم إليه هدية طريفة هى « مصحف رائق وسجادة أنيقة ، ونسخة من البردة ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » . وهنا يبدو ابن خلدون مرة أخرى ذلك السياسى البارع الذى يستطيع أن يوجه الحوادث بقوة رأيه وتأثيره ، فقد انتهى بأن أقنع الفريقين المتحاربين بعقد الهدنة وتسليم المدينة ، وأصدر تيمور الأمان لأهل دمشق ، ولكن جنده اقتحموها مع ذلك وعاثوا فيها سفكا وتخريباً .

ماذا كان يؤمل ابن خلدون من وراء صلته بالفاتح التترى ، وأى خواطر كانت تجول يومئذ فى ذهن هـذا السياسى الشيخ ؟ لعله كان يؤمل عقد صلة جديدة بهذا الفاتح الذى كان يسطع نجمه يومئذ . بيد أنه على ما يظهر لم يجد لدى الفاتح التترى ما كان يؤمل ، فاستأذنه بعد أسابيع قلائل فى السفر إلى مصر فأذن له وعاد إلى مصر فى سنة ثلاث وثمانمائة .

وفى مصر يعود ابن خلدون فيخوض مع خصومه معركة جديدة ، محورها منصب القضاء ، وإنها لمعركة طريفة مدهشة . فقد كان ابن خلدون يرى فى هذا المنصب الجليل مصدر نفوذ لا يستطيع الاستغناء عنه . وكان الحزب المناهض له من المصريين يرى أن يجرده من ذلك النفوذ . ويكفى أن نعلم أن ابن خلدون رفع إلى منصب القضاء ثم أقصى عنه فى هذه الفترة الأخيرة من حياته أربع مرات متوالية ، وكان يلى المنصب بضعة أشهر أو أسابيع ثم يعزل بسعى خصومه ثم يعاد إليه وهكذا ؛ وفى أواسط سنة ٨٠٨ هـ نراه للمرة السادسة والأخيرة قاضياً للمالكية بيد أنه لم يلبث هذه المرة سوى بضعة أسابيع . وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (الموافق ١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) توفى المؤرخ والمفكر العظيم بعد حياة طويلة حافلة ودفن بمقبرة الصوفية بباب النصر ، وقد كانت يومئذ مقبرة العظماء والعلماء .

هذه خلاصة موجزة لحياة ابن خلدون ، ومنها نستطيع أن نستخلص بعض الصفات البارزة لهذه الشخصية العجيبة ، وهى صفات نلخصها فيما يلى :

أولا — الطموح إلى المعالى ، فقد رأينا ابن خلدون منذ حداثته يسمو بنفسه ويتطلع إلى مراكز الثقة والنفوذ أينما حل ، ويظفر فى معظم الأحيان بتحقيق أمنيته .

ثانياً — الاعتداد بالنفس ، وهذه خلة بارزة جدا فى خلق المؤرخ ، تتضح لنا فى كثير من المواطن ، وتستند فى الواقع إلى ما كان يتمتع به المؤلف من المواهب والكفايات النادرة .

ثالثاً — حب المغامرة والدسائس ، وهذه صفة تصحب ابن خلدون مذ أتيح له أن ينزل إلى ميدان الحياة العامة ، وتلازمه فى جميع أطوار حياته . وقد رأينا ابن خلدون فى أكثر من موطن متآمراً مع المتآمرين من الزعماء والقادة ، مغامراً بحياته فى سبيل تحقيق مشاريع السياسة والسلطان . وإلى جانب هذه الخلة يتمتع ابن خلدون بكثير من الجرأة والشجاعة .

رابعاً — الدهاء وبعد الغور ، وهما من صفات السياسى الأمثل . وقد كان ابن خلدون سياسيا بكل معانى الكلمة . بل كان أعظم سياسى أنجبه الإسلام فى القرن الثامن الهجرى . ويتصل بهذه الصفة ما كان يتمتع به ابن خلدون من قوة الإقناع والتأثير ، وهى موهبة ظهر أثرها فى كثير من المواطن والحوادث .

خامساً — احتقار العاطفة والمبدإ ، وهنا لا نرى بدا من أن نقسو على المؤرخ ، فحياة ابن خلدون — أو حياته السياسية على الأقل — تحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن رجل المبدإ ، وأنه لم يكن يعف عن أى الوسائل أحيانا لتحقيق الغاية ، وأنه لم يكن يقف عند اعتبارات العاطفة . ألم نره غير مرة يهجر سادته ليلحق بمن هم أعظم سلطاناً وأكثر نفعاً ؟ ألم نره غير مرة يأتمر بالمحسن إليه ليحقق انقلاباً

أجدر بتحقيق أطماعه وأمانيه ؟ ألم نره دائماً إلى جانب القوى الظافر مهما كانت الوسائل التى أدت إلى ظفره ؟

وفى هذه الصفة تتجلى شخصية ابن خلدون السياسية بنوع خاص . بيد أنه يجب ألا ننسى من جهة أخرى ما تنطوى عليه هذه الصفة — التى تبدو من بعض نواحيها قاتمة ذميمة — من وجوه الكفاية والقوة . فقد كانت السياسة وما زالت حتى عصرنا تقوم على احتقار المبادئ والعواطف وانتهاز الفرص . بل لعل السياسة لم تفهم على هذا النحو أكثر مما تفهم فى هـذا العصر . ولنا أن نذكر فقط أن دولا عظيمة تستند اليوم فى سياستها إلى كل ما تحمله هذه الكلمة من المعانى التى تجانب كل حق ومبدإ وكل عاطفة إنسانية . تلك هى المكيافيلية التى هى اليوم شعار أنظمة طاغية باغية . وقد عرف ابن خلدون المكيافيلية قبل أن يعرفها مكيافللى نفسه ، وأدرك ما تنطوى عليه نواحيها العملية الصحيحة . فإذا كنا نقسو على المؤرخ والمفكر المسلم الذى جنح إلى هذا الضرب من السياسة الذميمة فى القرن الرابع عشر ، فإن له فى عصرنا أسوة بما تتبعه اليوم دول تنعت نفسها بالعظمة والحضارة ، ونظم تنعت نفسها بالمثلى ، و يكفيه ذلك عذراً وتخفيفاً .

٢ — تراثه الفكرى

— ١ —

كان التاريخ عند المسلمين حتى عصر ابن خلدون رواية فقط ، لكن ابن خلدون رأى أن حوادث التاريخ تسير طبقاً لقوانين طبيعية وعمرانية معينة ، وأنها قد تتشابه وتتكرر مع فارق الظروف والأحوال ، ومن ثم فقد رأى فى التاريخ علماً تجب دراسته وفهمه على ضوء هذه القوانين الطبيعية والعمرانية الخاصة ، وأراد أن يمهد لمؤلفه التاريخى ببسط هـذه الآراء والتأملات التى انتهى إليها فكتب مقدمته الشهيرة .

كتب ابن خلدون مقدمته لتكون شرحاً وتمهيداً يقرأ التاريخ على ضوئها ، ولكن هذه المقدمة جاءت بذاتها وحدة مستقلة تعالج بحوثاً خاصة ذات ابتكار مدهش . وقد شعر ابن خلدون نفسه أنه حين كتابة المقدمة إنما يعالج موضوعاً جديداً مستقلا بذاته ، وهو يسمى هـذا العلم الجديد « بالعمران البشرى والاجتماع الإنسانى » . ويلخص موضوعه بأنه « بيان ما يلحقه (أى العمران البشرى) من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى » .

وابن خلدون يفهم العمران البشرى على أنه النظر إلى المجتمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية والحادثة ، ويجمل مباحثه فى ستة فصول كبيرة هى :

الأول — فى العمران البشرى على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

الثانى — فى العمران البدوى وذكر القبائل والأمم المتوحشة .

الثالث — فى الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .

الرابع — فى العمران الحضرى والبلدان والأمصار .

الخامس — فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس — فى العلوم واكتسابها وتعلمها .

ويتناول ابن خلدون هذه الأقسام بالشرح المفصل فى سلسلة متصلة الحلقات ويسير بنا من بحث إلى بحث ، ويصل بنا إلى ما يريد أن يرتبه من النتائج والقوانين الاجتماعية .

ومن الصعب أن نلخص محتويات المقدمة فى فصل أو فى محاضرة ؛ فمواد المقدمة من الدقة والغزارة بحيث يستحيل علينا أن نقدم عنها مثل هذا العرض ، بيد أننا سنحاول أن نقدم لمحة عن أهم ما تضمنته .

يحدثنا ابن خلدون أولا عن العمران أو الاجتماع البشرى بصفة عامة وكون الاجتماع ضرورة بشرية ، وكونه يتنوع بالنسبة للإقليم . ثم يبدأ بالكلام عن العمران البدوى وهو أول مرحلة حقيقية فى علم العمران كما يتصوره ابن خلدون ، فيحدثنا بإفاضة عن المجتمع البدوى وخواصه ويقارنه بمجتمع الحضر . وهنا يشرح لنا نظريته الشهيرة فى العصبية ، وهى عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه ؛ وقوامها فى نظره الاتصال برابطة النسب والقرابة وما إليها من الروابط المماثلة . وهذه العصبية هى منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة فى المجتمع البدوى . وتكون هذه الرياسة لأهل العصبية ، وغاية العصبية هى الملك .

ثم يحدثنا ابن خلدون بعد ذلك طويلا عن الدولة والملك فى عدة فصول قوية شائقة ، فالدولة تحدث بالقبيل والعصبية ، وللدولة خواص معينة ، وللملك خواص معينة ، وإذا استقرت الدولة أو الملك وغلبت عليها الدعة والسكون والترف فإنها تسير إلى الهرم ثم الفناء ؛ بل يرى ابن خلدون أن للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص ، وهو يقدر لنا هذا العمر بثلاثة أجيال ، والجيل فى

نظره أربعون عاماً ، فالدولة العادية بذلك تعمر نحو مائة وعشرين عاماً إلا فى أحوال استثنائية .

ثم إن الدولة تتحول من البداوة إلى الحضارة . وهنا يحدثنا ابن خلدون عن الدولة فى الحضر ، ويتناول الملك وأصنافه والإمامة والخلافة ، ثم تحول الخلافة إلى ملك ، ورسوم الخلافة وخططها وألقابها ، والملك وخططه ورسومه وشاراته . كل ذلك فى سلسلة ممتعة من التدليل تمتاز بقوتها وروعتها .

ويلحق بذلك حديث البلدان والأمصار ونشأة المدن واختلاف ظروفها وأحوالها ، وعن الحضارة وكونها نهاية العمران وأنها مؤذنة بفساده .

وفى الفصل الخامس يحدثنا ابن خلدون عن المعاش ووجوه الرزق ووسائل الكسب ، وفى الفصل السادس يحدثنا عن العلوم والتعليم ومذاهب التربية .

هذا ملخص موجز جدا لأهم ما تحتويه مقدمة ابن خلدون الشهيرة ، والقراءة خير وسيلة لمعرفتها والتمتع بما يعرضه مؤلفها من النظريات الطريفة والآراء المبتكرة .

ماذا كان نصيب ابن خلدون فى هذه المباحث المدهشة التى يقول عنها إنها جديدة ولم يسبقه إليها أحد ؟ أو بعبارة أخرى هل كان ابن خلدون مبتكراً لهذا العلم الذى يسميه بالعمران البشرى ، وهل كان أول من كتب فيه وعرض إلى مسائله ؟ أم كان فقط مقلداً ماهراً يعرض آراء فطن إليها المفكرون المسلمون قبله ، فتناولها بالزيادة والشرح ؟

الواقع أن ابن خلدون مبتكر ؛ بل هو آية فى الابتكار من هذه الناحية ، فإن المقدمة تعتبر فى مجموعها مجهوداً علميا جليلا لم يسبق إليه أحد بمثل هذه الطرافة ؛ ولم نجد فيما خلفه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون كاتباً أو مفكراً تناول

علم العمران أو الاجتماع البشرى كوحدة متصلة كما تناوله ابن خلدون ، أو تبسط في مباحثه بهذا التفصيل الشامل الذى تعرضه لنا مقدمة ابن خلدون .

نعم نجد كثيراً من المفكرين المسلمين قبل ابن خلدون تناولوا بعض المباحث التى وردت فى المقدمة ، ونجد بعض الآثار التى ظهرت قبل ابن خلدون تشير بإيجاز إلى بعض ما تناوله ، ولكن هذه المباحث والإشارات الموجزة لا يمكن أن تعتبر فى مجموعها ذات صلة مباشرة بجوهر العلم الذى ابتكره ابن خلدون وشرح لنا مسائله بهذه الإفاضة المدهشة .

وهنالك نوع واحد من البحث ، أفاض فيه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون ، هو موضوع السياسة الملكية — الملك والسلطان — وما يجب أن يتوفر فيه من الخلال والخطط السلطانية على اختلاف أنواعها . ومنذ القرن الثالث نجد آثار التفكير الإسلامى تحوم حول هذا الموضوع أو تتبسط فيه ، وهذا بيان هذه الآثار مرتبة حسب تواريخ كتابتها :

أولا — فى كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة الدينورى قسم خاص ، عنوانه كتاب السلطان يتحدث فيه عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها السلطان وفى رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته وما يجب عليه نحو العمال والحكام .

ثانياً — فى رسائل « إخوان الصفا » الفلسفية التى ينسب وضعها إلى أواسط القرن الرابع بعض شذور ولمحات عن بعض الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وعن « السياسة » وأقسامها حسبما فهمت فى تلك العصور (سياسة نبوية وملوكية وعامية وخاصية وذاتية ... الخ) ، و بعض مباحث مما تناولها ابن خلدون كتأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق والصنائع وما تحتاج إليه من العناصر وغيرها .

ثالثاً — كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ، وهو أشهر الكتب التى

تعنى بالسياسة الشرعية ، وفيه حديث طويل عن الإمامة وشروطها ، والإمام وصفاته ، والوزارة والإمارة ، وباقى الخطط السلطانية والمدنية . كذلك يوجد للماوردى رسالة أخرى عن « الوزارة وسياسة الملك » ، ويرجع هذان الأثران إلى أوائل القرن الخامس .

رابعاً — كتاب سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى . وهو يتقدم قليلا فى تناول السياسة الشرعية ، والسياسة والخطط السلطانية ؛ ويمتاز هذا الكتاب بالإفاضة ، وينوه ابن خلدون فى مقدمته بقيمته ويقول إنه «حوم» على موضوعه ولكنه لم يتناول جوهره .

خامساً — رسالة « التبر المسبوك فى نصائح الملوك » ، وهى تنسب للإمام الغزالى . ورسالة عنوانها « المنهج المسلوك فى سياسة الملوك » ، لعبد الرحمن بن عبد الله وقد كتبها للسلطان صلاح الدين .

سادساً — ولدينا أثر قيم يمتاز بشىء من الطرافة ، هو كتاب الفخرى أو « الآداب السلطانية والدول الإسلامية » لابن طباطبا المعروف بالطقطقى ، وقد كتب سنة إحدى وسبعمائة ، وفيه فصل كبير عن الأمور السلطانية والسياسات الملكية ، وهو يمتاز بأسلوبه النقدى البارع .

ونستطيع أيضاً أن نذكر من هذه الآثار التى سبقت ابن خلدون إلى شىء من موضوعه كتاب « أهل المدينة الفاضلة » للفيلسوف ابن نصر الفارابى ، وفيه أقوال قيمة عن نشأة المدن والأمصار ورئيس المدينة الفاضلة ، أى السلطان وصفاته وعن الصناعات وأقسامها .

تلك هى الآثار الإسلامية التى يمكن أن يقال إنها تتعرض لشىء من مباحث المقدمة ؛ غير أنها جميعاً تقتصر — كما قدمنا — على تناول مباحث أو نقط معينة

لا تجمعها رابطة مشتركة ؛ ولا تصل فى مجموعها إلى جوهر العلم الذى يحدثنا عنه ابن خلدون أعنى علم الاجتماع البشرى .

* * *

هذا من ناحية التفكير الإسلامى . بيد أنه يحق لنا أيضاً أن نتساءل هل نقل ابن خلدون شيئاً من آثار التفكير الغربى اليونانى أو اللاتينى أو غيره ، أو اعتمد عليها فى كتابة المقدمة ؟ يجيب جميع النقدة الغربيين بالنفى و يؤكدون أنه واضع علم الاجتماع الحقيقى .

وهذه بعض أقوال العلماء والنقدة الغربيين فى ذلك :

قال العلامة المستشرق الهولاندى دى بوير فى كتابه « تاريخ الفلسفة الإسلامية » : إن ابن خلدون مع تأثره بفلسفة أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس قد حاول أن يؤسس نظاما فلسفيا لم يجل بذهن أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ نظاما فلسفيا . وابن خلدون هو بلا ريب أول من حاول أن يشرح بإفاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة ، وأن يعرض ظروف الجنس والإقليم ، ووسائل الإنتاج وما إليها وأثرها فى تكوين ذهن الإنسان وعاطفته ، وفى تكوين المجتمع . ولقد أمّلَ ابن خلدون أن يخلفه من يتم بحثه ، ولكن كان ذلك من غير المسلمين ؛ فكما أنه كان دون سلف فكذلك بقى دون خلف » .

ويقول العلامة الاجتماعى لدفيج جمبلوفتش فى بحث طويل يخصصه لابن خلدون : (إن ابن خلدون من علماء الاجتماع ، و إنه يرتفع إلى ذروة البحث الاجتماعى حينما يعرض ملاحظاته من تفاعل الجماعات الاجتماعية ؛ وآراؤه فى هذا المقام عن الأجناس الاجتماعية فى منتهى الدقة . وفى أقواله عن « الوسط » ومؤثراته ما يدل على أنه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين بأربعة قرون .

ومن المدهش أن نرى كم تتفق أقوال ابن خلدون عن القواعد التى يلجأ إليها الفاتحون لتأييد سلطانهم مع القواعد التى أثبت البحث التاريخى الحديث أنها كانت عماد مؤسسى الدول الأوروبية فى العصور الوسطى ، بل إن فضل السبق يرجع إلى ابن خلدون فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكياڤيللى بعد ذلك بقرن إلى الحكام فى كتابه « الأمير » .

ثم يقول جمبلوفتش : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت بل قبل ڤيكو الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوربى جاء مسلم ورع فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » .

ويقول العلامة الاقتصادى كلوزيو : « إن المؤرخ البربرى العظيم استطاع فى العصور الوسطى أن يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيدران وماركس وباكونين » .

ويصف العلامة النمسوى فون كريمر ابن خلدون بأنه « مؤرخ للحضارة » ، ويصفه العلامة المستشرق الكبير فون هامار بورجشتال بأنه : « مونتسكيو العرب » .

وفيما تقدم كفاية فى اعتراف النقد الغربى بالمنزلة الرفيعة التى تتبوؤها مقدمة ابن خلدون فى التفكير العالمى .

وكان من أثر ذلك أن ترجمت المقدمة أو بعض أجزائها إلى معظم اللغات الأوروبية الحية مثل الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والروسية والأسبانية .

ونرى قبل أن نترك الحديث عن المقدمة أن نشير إلى نقطة هامة فيما يتعلق بأسلوبها . فأسلوب المقدمة أسلوب علمى قوى ، وهو مع ذلك فى منتهى السلاسة

والوضوح ، ويبدى ابن خلدون مقدرة فائقة فى التعبير عن آرائه ونظرياته بسهولة تامة . وقراءة المقدمة هى خير ما يفيد الشباب فى التعبير عن كثير من الموضوعات الحديثة التى يعسر التعبير عنها .

— ٢ —

هذا عن المقدمة ، وأما عن تاريخ ابن خلدون فهو كما انتهى إلينا يشمل ستة مجلدات كبيرة غير المقدمة وعنوانه : « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ، وهو عبارة عن تاريخ عام لأمم العالم منذ أقدم العصور حتى عصر المؤلف ، مع التوسع بنوع خاص فى تاريخ الأمم الإسلامية التى كانت تسيطر فى العصور الوسطى على معظم العالم القديم ، وكانت تحتل فيه المقام الأول . وتاريخ ابن خلدون لم يخل من نفس العيوب التى أخذها على أسلافه المؤرخين المسلمين . بيد أنه أكثرهم تمحيصا للحوادث ، وأقلهم تورطا فى التسليم بالروايات والقصص المغرقة . وأنفس قسم فى تاريخ ابن خلدون هو بلا ريب تاريخ البربر ، وهو يشمل المجلدين السادس والسابع . وهو بإجماع النقدة أوثق وأقوم ما كتب فى موضوعه ، ومن ثم كانت عناية الغربيين بهذا القسم وترجمته إلى الفرنسية منذ منتصف القرن الماضى بعناية المستشرق الشهير البارون ده سلان الذى ترجم إلى الفرنسية أيضاً مقدمة ابن خلدون .

وأسلوب ابن خلدون فى تاريخه أسلوب قوى ، ويصل أحيانا فى قوته إلى درجة الاضطرام فى التعبير ؛ فهو — إذا صح التعبير — أسلوب « ديناميتى » قد يعبر عن الشىء الكثير فى ألفاظ قليلة ، ويصف المواقف أو النتائج أحياناً بعبارات

داوية رنانة تنفذ إلى السويداء ؛ فهو يقول لنا مثلا فى وصف جهود الحاجب المنصور للاستيلاء على السلطة : « وثاب له رأى فى الاستبداد فكر بأهل الدولة وضرب بين رجالها ، وقتل بعضها ببعض » أو يقول : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ؛ فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضها ببعض » ، ويقول فى مدح البرامكة : « وكان البرامكة من محاسن العالم ودولتهم من أعظم الدول وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » ، وفى وصف الحاكم بأمر الله : « وكان حاله مضطربا فى الجور والعدل ، والإخافة والأمن ، والنسك والبدعة » . غير أنه يبدو أحياناً غامضاً فى عباراته بما يلجأ إليه من شدة الإيجاز فى التعبير ؛ وعلى أى حال فأسلوب ابن خلدون فى تاريخه من أقوى الأساليب النقدية التى عرفت فى الرواية الإسلامية .

ويختتم ابن خلدون تاريخه بفصل طويل عن حياته عنوانه « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » . وفيه يحدثنا عن مراحل حياته وخدماته فى قصور المغرب والأندلس بإفاضة ، وعن حياته بمصر حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

ولكن توجد بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من « التعريف » أوفى وأتم عنوانها « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » ، وفيها يستمر ابن خلدون فى استعراض حوادث حياته فى مصر ثم بالشأم ، ومقابلته لتيمورلنك ، ويصل فى رواية هذه الحوادث حتى أواخر سنة ٨٠٧ هـ . أعنى إلى ما قبل وفاته ببضعة أشهر فقط .

وهذا التعريف أو التعريف بابن خلدون قطعة فريدة من الأدب العربى ، وفيه يفصح ابن خلدون بكل صراحة عن مواطن القوة والضعف فى نفسه ، ويحدثنا بلا حرج عن مواقف حياته المحرجة ، وهى تدل فى أحيان كثيرة على

صفات لا تتفق دائماً مع الأخلاق المثلى مما أشرنا إليه فى ترجمة المؤرخ ، وفيه تبدو حياة ابن خلدون كأنها قصة مغامرات ممتعة .

ولم يصلنا من تراث ابن خلدون شىء آخر ، ولكن صديقه ابن الخطيب ذكر لنا فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » فى ترجمته لابن خلدون ان ابن خلدون « شرح البردة شرحا بديعاً ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيداً فى المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتابا فى الحساب ، وشرع فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشىء لا غاية فوقه فى الكمال » ، بيد أننا لم نتلق شيئاً من الآثار التى يشير إليها ابن الخطيب ، ولم يحدثنا ابن خلدون نفسه عن شىء منها .